معنى فطرية الإسلام عند الإمام ابن تيمية

د. عبد الحليم أحمدي

المقدمة:

من أخطر الأسئلة التي تواجه الفكر الإسلامي عامة، والعقيدة الإسلامية خاصة. السؤال عن المعرفة البشرية، هل هي فطرية، أم أنها كلها مكتسبة؟

وقد بدأت بدراسة هذه القضية عند الإمام ابن تيمية، فوجدته يفسر كلمة الفطرة الواردة في الكتاب والسنة بالإسلام، مخصصاً لذلك بعض البحوث التي يستدل فيها ضد من يرى أن الذهن البشري عند ولادته خال عن الكفر والإيمان.

ولكن مامعنى الإسلام الفطرة عنده؟ إذ يأتي الإسلام عنده بعدة معان. تتراوح بين العام، والخاص، والأخص.

ولم أجد في المكتبة الإسلامية بحثاً أو كتاباً يجيب عن هذا السؤال، وإنما وجدت إجابته منثورة بين ثنايا كتبه المختلفة، فجمعت هذه المنثورات، وعلّقت عليها، وقارنتها بآراء غيره من العلماء كلما اقتضى الأمر، وأوضحت رأيي، فكان هذا البحث الذي بين يدي القارىء.

وقد اتبعت فيه المنهج التحليلي، موضحاً ـ بإيجاز ـ رأي الإمام ابن تيميه أولاً في المشكلة الأم، وهي معنى الفطرة، من خلال مناقشاته وردوده على من يرى أنها تعني خلو الذهن البشري عن الكفر والإيمان معاً، ثم عرضت لمعاني الإسلام عنده من ثنايا مراجعه المختلفة، ثم عرضت الأدلة والبراهين التي يسوقها للاستدلال على أن فطرية الإسلام لاتشمل التوحيد فقط، وإنما تشتمل على مباديء أخرى كذلك.

وهنا كان التساؤل الذي يثار تلقائياً، وهو كيف يستقيم القول بفطرية هذه الأمور عن طريق الاستدلال وإقامة البرهان، وهي أي الفطرية تضاد الحاجة إليه وتقتضي العموم والشمول؟

والإجابة عن ذلك أدت بدورها الى تساؤل آخر، وهو: هل الطفل ـ مهما كان صغيراً ـ يعرف بعض البديهات الأساسية للحياة بإلهام من الله تعالى أم لا؟ وماذا تعني الآية القرآنية : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . . الخ؟ فأجبت عن هذا التساؤل، موضحاً رأي الإمام ابن تيمية، ومقارناً رأيه برأي غيره من العلماء المسلمين، ومعلقاً على ذلك برأيي ، ثم أنهيت البحث بخلاصة موجزة له . .

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه

معنى الفطرة

معنى الفطرة في اللغة:

تأتي مادة فطر في اللغة بمعنى: الشق أو الشق طولا، يقول لسان العرب:
فطر الشيء يفطر فطرا فانفطر، وفطره: شقه.

وتفطر الشيء: تشقق، والفطر: الشق. وجمعه: فطور.

وفي التنزيل العزيز: هل ترى من فطور.

وأصل الفطر: الشق، ومنه قوله تعالى: «إذا السماء انفطرت»(١). أي: انشقت.

ويقول صاحب المفردات في غريب القرآن (٢):

فطر: أصل الفطر الشق طولا، يقال فطر فلان كذا فطرا، وأفطر هو فطورا، وانفطر انفطارا، قال تعالى: (هل ترى من فطور) (٣ الملك)، أي: اختلال، ووهن فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح. قال تعالى: (السماء منفطر به ـ كان وعده مفعولاً) (٨المزمل) وفطرت الشاة: حلبتها.

«وتفطرت الأرض بالنبات، إذا انشقت عنه. وفطر ناب البعير ـ كنصر ـ فطراً شق»(٣)

من هنا نعرف أن مادة: فطر، يفطر، فاطر يعني الشق في الأصل والحقيقة كما تأتي المادة نفسها بمعنى الابتداء والاختراع مثل «فطر البئر: ابتدأ حفرها». (٤)

«وفي التنـزيل العزيز: «الحمدلله فاطر السماوات والأرض» (١) فاطر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ماكنت أدري مافاطر السماوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان

---

(١) انظر ز ـ ف صفحة ١١٠٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص ٣٨٢.

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ـ مطبعة مصطفى الحلبي.

(٤) معجم الفاظ القرآن الكريم المجلد الثاني: ص ٣٣٨: مجمع اللغة العربية ط ٢، الهيئة المصرية العامة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

يختصمان في بئر، فقال: أحدهما: أنا فطرتها: أي أنا ابتدأت حفرها. . .». [1]

ومن هنا «تأتي كلمة الفطرة بمعنى الخلقة أيضاً، وجمعها: فطر، وفطرات، بالكسر وسكون الطاء، أو فتحها أو كسرها». [2]

ومعنى ذلك: أن الاستعمال اللغوي لكلمة الفطرة تعني: الشق في الأصل والحقيقة، ولكنها استعملت في معنى الابتداء والاختراع كذلك، ولهذا عرفها أبو البقاء بقوله [3]: «إنما هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته».

ويبدو أن بين المعنيين علاقة، فالفلاح يشق الارض التي تكون صالحة بعد ذلك لوضع البذرة فيها ابتداء.

معنى الفطرة في الشرع:

ولكن ماهو هذا الابتداء والاختراع الأول بالنسة للإنسان في الشرع؟

يذكر القرطبي اختلاف العلماء في ذلك.

إذ يشير الى معنى كلمة الفطرة في معرض تفسيره للآية الكريمة (فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها [4] فيقول: اختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة [5]. ثم يذكر من هذه الأقوال: [6] الفطرة هي: البداءة التي ابتدأهم الله عليها، أي: على مافطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء. وإلى مايصيرون إليه عند البلوغ. وبعد أن يستعرض أدلة هذا الفريق يقول: [7] وقالت فرقة: ليس المراد بقوله تعالى: فطر الناس

---

(١) المصدر السابق.

(٢) لسان العرب.

(٣) الكليات: جـ ٣ص٣٥٦. . وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢م.

(٤) سورة الروم: آية ٣٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: جـ ١٤ ص ٢٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: جـ ١٤ ص٢٥ باختصار وتصرف.

(٧) الجامع لأحكام القرآن: جـ ١٤ ص٢٧ باختصار وتصرف.

عليها، ولاقوله عليه السلام: كل مولود يولد على الفطرة: العموم. وإنما المراد بالناس المؤمنون.

وبعد عرض أدلة هذه الفرقة يذكر الرأي الذي يراه صواباً فيقول: [1]«وقالت طائفة من أهل الفقة والنظر: الفطرة هي: الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود على خلقة يعرف بها ربه، إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقه مخالفة لخلقه البهائم، التي لاتصل بخلقتها إلى معرفته.

ثم يذكر «الإسلام» كأحد تفسيرات كلمة الفطرة التي قال بها بعض الطوائف إذ يقول [2]: منها: الإسلام، قال أبو هريره، وابن شهاب، وغيرهما، قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل: واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة.

وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أن الطفل خلق سليماً من الكفر، على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم، حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا في الجنة، أولاد مسلمين كانوا، أو أولاد كفار.

نستخلص من ذلك ان القرطبي يقسم آراء العلماء في معنى الفطرة إلى أربعة أقسام:

١ ـ أن الفطرة: هي الإسلام.
٢ ـ أن الفطرة في الحديث لاتعني كل الناس، وكل مولود، وإنما أولاد المسلمين فقط هم الذين فطروا على الإسلام.
٣ ـ أن الفطرة هي: البداءة التي ابتدأهم الله عليها من الموت والحياة والسعادة والشقاء.
٤ ـ الفطرة هي الخلقة.

وبالنظر في هذه الآراء يمكن أن نقسمها تقسيماً آخر أوضح، فنقول: إنها تنقسم في الحقيقة إلى قسمين:

---

(١) المصدر السابق: جـ ١٤ ص٢٥ باختصار وتصرف.

(٢) المصدر السابق: باختصار وتصرف.

قسم يرى أن الفطرة تعني خلو الذهن البشرى من كل شيء بما فيه الكفر والإيمان، وقسم آخر يرى أنها لاتعني ذلك، وهؤلاء ينقسمون إلى القائلين بأن الله ابتدأهم على الموت والحياة. . والقائلين بأن الله ابتدأهم على الإيمان، والقائلون بالرأي الاخير ينقسمون إلى فئتين، فئة ترى أن ذلك خاص بأولاد المسلمين، بينما ترى الفئة الأخرى أن ذلك عام يشمل أولاد الكفار والمسلمين معاً.

وإذا كان القرطبي يذكر هذه الآراء، فإنه يقف مع من يرى خلو الذهن البشري عن الكفر والإيمان، فيقول[1] مؤيداً رأيه: «وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة، ثم يعتقد الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميز. . . الخ.

ويخالف القرطبي في ذلك جمع كثير من العلماء، منهم بعض علماء اللغة أنفسهم، فبعد مايذكر ابن منظور في لسان العرب[2] معنى الفطرة في اللغة ـ وهو الشق ـ يشير إلى معنى آخر له، لعله يشير إلى معناه في الشرع فيقول[3]: «الفطرة مافطر الله عليه الخلق من المعرفة به».

ويقول الراغب الأصفهاني[4]: فقوله: (فطرة الله التي فطر الناس عليها إشارة منه تعالى إلى مافطر، أي أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطرة الله هي ماركز فيه من قوته على معرفة الإيمان».

ويقول صاحب كتاب «التعريفات»[5]: الفطرة هي الجبلة المنهية لقبول الدين.

ومن الذين يخالفون القرطبي في هذا الرأي: الإمام ابن تيمية

الذي يخصص رسالة لشرح معنى الفطرة باسم (في الكلام على الفطرة) ويبدأها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: جـ ١٤ ص٢٧ باختصار وتصرف، ويذكر القرطبي ذلك على لسان مؤيدي هذا المذهب وهو نفسه من أنصاره.

(٢) سبق ذكر رأيه في المعنى اللغوي.

(٣) لسان العرب: ص١١٠٩.

(٤) المفردات: ص: ٣٨٢.

(٥) الجرجاني: ص١٤٧.

بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله» .*

فيقول [1]: «ذكر القرطبي في تفسيره أقوالاً في الفطرة منها: دين الإسلام وهو المعروف عند عامة السلف. . . »

ويرجح ابن تيمية ـ خلافا للقرطبي ـ هذا التفسير لكلمة الفطرة كما ذكرنا سابقاً، وإذا كان الحديث الذي ورد في البخاري والآية التي وردت في سورة الروم يذكر أن كلمة الفطرة مطلقة، فهناك روايات أخرى للحديث نفسه تفسر كلمة الفطرة» بالإسلام.

مما يذكره الإمام ابن تيمية في هذا المجال مارواه الإمام مسلم، عن عياض ابن حمار المجاشعي، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه عز وجل: «خلقت عبادى خنفاء مسلمين، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا» [2]

وبذلك يفسر الحديث نفسه كلمة الفطرة بالإسلام بالنص على: خلقت عبادي حنفاء مسلمين.

ثم ينتقل الإمام ابن تيمية إلى الحديث في رواية البخاري الذي ذكرت فيه كلمة الفطرة مطلقة دون قيد «الاسلام»؛ ليقول: إنه لو كانت الفطرة تعني في الحديث خلو الذهن البشري عن الكفر والإيمان، لما اكتفى بذكر الأديان الباطلة، التي يؤول إليها حال الطفل عند تركها الفطرة، ولذكر أيضا الإسلام، فقال: أو يمسلمانه «مع قوله:

---

* ونص الحديث في البخاري: «روي أبو هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «مامن مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». انظر فتح الباري ٣/١٧٦ ومابعدها

(١) انظر «في الكلام على الفطرة» ضمن مجموعة الرسائل: جـ٢ ص ٣٣٣.

(٢) رواه مسلم كتاب القدر رقم ١٨٥٢.

فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . .

فلنستمع إليه يقول [1] «لو كان المراد ذلك لم يكن لقوله فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه معنى: فحينئذ لافرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار والتهويد والتنصير والإسلام، وإنما ذلك بحسب الأسباب، فكان ينبغي أن يقال: فأبواه يمسلمانه ويهودانه وينصرانه، فلما ذكر أن أبويه يكفرانه، وذكر الملل الفاسدة دون الإسلام، علم أن حكمه في حصول سبب مفصل غير حكم الكفر».

ويضيف ابن تيمية على ذلك دليلاً آخر، إذ يقول: «إن الحديث يمدح حال الفطرة ويذم حال انحراف الإنسان عنها، فلو كانت الفطرة تعني الخلو عن كل شيء لما استحق المدح ولما استحق الانحراف عنها الذم.

يقول في ذلك [2] «فتمثيله بالبهيمة التي ولدت جمعاء، ثم جدعت فبين أن أبويه غيرا ماولد عليه.

ففي الجملة: كل ماكان قابلاً للمدح والذم على السواء، لايستحق مدحاً ولا ذما، والله تعالى يقول: «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها».

وأيضاً: فالنبي صلى الله عليه وسلم شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق، وشبه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف، ومعلوم أن كمالها محمود، ونقصها مذموم، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة؟ والله اعلم*.

---

(١) مجموع الفتاوي: جـ٤ ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

* ونرى أن ماورد في الحديث والآية من كلمة الفطرة يعني أن ماجاء به الاسلام من المبادىء العظيمة يوافق ماخلق الله عليه الانسان من الصفات المختلفة وما أوجد عليه هذا الكون الذي يعيش فيه ذلك الإنسان من السنن والنواميس القويمة.

وقد أعجبني ماذكره أحد الباحثين. أنظر د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم صفحة ٨٤ ـ ٨٥ باختصار، من أن الطواف وهو من شعائر الإسلام العظيمة سنة عامة في الخلق والكون كله، فالأقمار في المجموعة الشمسية مثلا تدور أو تطوف حول كواكبها، وعالم المجرة الذي منه مجموعتنا الشمسية يدور بل العالم الفلكي كله يدور دورانا بطيئا هائلاً حول مركز كما تدور عجلة حول مركزها، فاذا مانظرنا إلى أصغر الأشياء وهي الذرة نلاحظ أنه تتوسطها نقطة مادية يتمركز فيها ثقل الذرة (النواة) ويدور حولها عدد من الكهيربات.

ويرى ابن تيمية أخيراً أن هذا التفسير لكلمة الفطرة تؤيده الأية القرآنية: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم*وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»(1)

للإسلام ثلاثة معان:

وهكذا ينتهي ابن تيمية - بخلاف القرطبي وغيره - إلى أن المقصود بالفطرة الواردة في الحديث: هو الإسلام، فالإسلام هو الأمر الفطري في الإنسان الذي فطره الله عليه، إلا أن هذه النتيجة التي انتهينا إليها تؤدي بدورها إلى تساؤل آخر يلح على طبيعة الهدف الذي نبحث عنه، وهو مامعنى الإسلام نفسه، الذي يراه ابن تيمية فطرياً في الإنسان؟ فمن المعروف أن كلمة الإسلام أطلقت على ثلاثة معان يرتبط بعضها ببعض:

١ - الإسلام هو التوحيد

٢ - والإسلام هو الدين المنزل على محمد ﷺ

٣ - والإسلام هو الدين الذي نزل على الرسل والأنبياء جميعاً.

ويلاحظ في كل هذه الحالات من عالم الذرة إلى عالم الفلك: أن المطوف به واحد، والطائفون كثيرون، ثم إن العالم المجري بملايين شموسه وكواكبه، بل الكون كله يدور أو يطوف حول شيء واحد لا ندري ما هو؟» انتهى كلام الدكتور الغمراوي.

وأعتقد أن القرآن والسنة ولاسيما حديث: كل مولود على الفطرة. . والآية فطرة الله. . الخ دعوة صريحة إلى أن تقوم بما يشبه ذلك في اكتشاف الموافقة بين مبادىءء الإسلام من جهة ومبادىء النفي البشرية وصفاتها من جهة أخرى.

ولو كنا التقطنا هذه الإشارة السماوية مستجيبين لهذه الدعوة الالهية، لنالت الدراسات الخاصة بمعرفة الإنسان، التقدم الذي نالته الدراسات الطبيعية والكونية، بل ربما كانت تفوقها، ولكننا نحن المسلمين أول من نضع أسس علم النفس على مبادىء إسلامية ومازال أمامنا الوقت ومازالت الدعوة مفتوحة.

* وفي النص المصحفي: ذريتهم كما هو معروف، أما ذرياتهم فقراءة نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر والحسن، وورد في قراءة زهير وحصيف ذريتهم. انظر في ذلك: د. عبدالعال سالم مكرم ود. أحمد مختار عمر: معجم القراءات القرآنية: جـ٢ ص ٤٢٢.

والآية في سورة الأعراف: آية ١٧٢.

(١)الرسالة التدمرية صفحة ١١٣

وإذا كان ابن تيمية يرى أن الإسلام هو الفطرة في الإنسان، فهل يعني بذلك قضية التوحيد فقط؟ أم يعني كل ما نزل على محمد ﷺ في مختلف المجالات؟ أم أن فطرية الإسلام تعني عنده هذه الأسس والمباديء العقدية والتشريعية والخلقية التي تعم الشرائع السماوية كلها؟ وبذلك تكون كل تلك القضايا فطرية؟

وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل تجدر الإشارة إلى أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قد أشار إلى هذه المعاني الثلاثة في مؤلفاته.

فهو يقول [1] عن الإسلام بالمعنين الثاني والثالث: «وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى، هل هم مسلمون أم لا؟ وهو نزاع لفظي، فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا».

ثم يضيف [1] «أما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبياً فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء».

ثم يسير إلى المعنى الأول قائلاً [2] ورأس الإسلام مطلقا: شهادة أن لا إله إلا الله، وبها بعث جميع الرسل. ويشير في موضع آخر إلى المعنى الثالث يقول [3]: «.. ومن يبتغ غير الإسلام دنيا... الخ» الآية [4]: عام في الأولين والآخرين، بأن دين الإسلام: هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه وعليه عباده المؤمنون، كما ذكر الله ذلك في كتابه من أول رسول بعثه إلى أهل الأرض: نوح، وابراهيم، واسرائيل، وموسى، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء.

ويقول [5]: «فالدين واحد، وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته، ولهذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت، ثم نسخ ذلك، وشرع لنا الجمعة، فكان الاجتماع يوم

---

(١) المصدر السابق ص ١١٣.
(٢) المصدر السابق ص ١١٣.
(٣) اقتضاء الصراط.. صفحة ٤٥٠.
(٤) سورة آل عمران آية ٨٥.
(٥) اقتضاء الصراط ص ٤٥٥.

السبت، فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ: لم يكن مسلماً، ومن لم يدخل في شريعة محمد ﷺ بعد النسخ، لم يكن مسلماً.

فدينهم واحد. وهو عبادة الله وحده لاشريك له. وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت. وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت.

وتنوع الشرائع في الناخ والمنسوخ من المشروع، كتنوع الشريعة الواحدة.

فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ هو دين واحد، مع أنه قد كان في وقت يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة كما أمر النبي المسلمين بذلك بعد الهجرة ببضعة عشرة شهراً. وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة. ويحرم استقبال الصخرة[1]

وإذا كانت هذه النصوص تدل على أن الإسلام يأتي بمعنيين، إلا أن المبادىء الأساسية واحدة، فإن هناك من النصوص مايؤيد أن جوهر هذه المباديء وجوهر الإسلام كله هو التوحيد: [2]

إذ يقول [3]: «فدينهم واحد: وهو عبادة الله وحده لاشريك له»

وكثيرا ما أطلق ابن تيمية كلمة الإسلام، وأراد بها كلمة التوحيد والشهادة، إذ يقول [4] وهو يقيم الأدلة على رأيه بأن معنى الفطرة هو الإسلام: «وقد سئل الزهري عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزيه رضيع يعتقه؟

قال: نعم، لأنه ولد على الفطرة، وهي الإسلام، وقال الزهري: يصلى على كل مولود متوفى، وإن كان لقية؛ لأنه ولد على فطرة الإسلام.

والإسلام هو قول لا إله إلله: وذلك في قوله تعالى: أفمن شرح الله صدره للاسلام. قال ابن عباس: وأكثر المفسرين لقول لا إله إلا الله...».

المقصود بالاسلام هو دين الله

وهكذا نرى أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يشير إلى معاني الإسلام الثلاثة.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥٦.

(٢) اقرأ في معاني التوحيد عند ابن تيمية الرسالة التدمرية وجزء ١٤ ص ١٥ من مجموع الفتاوي.

(٣) اقتضاء الصراط.. صفحة ٤٥٥.

(٤) في الكلام على الفطرة: ضمن مجموعة الرسائل ٢/٣٣٦.

والآن نعود للإجابة عن التساؤل الذي طرحناه آنفاً وهو: إذا كانت الفطرة عند ابن تيمية تعني الإسلام، وإذا كان الإسلام يطلق على تلك المعاني التي ذكرناها، فأي معنى من هذه المعاني هو المقصود بكلمة الفطرة؟

والحقيقة، فإن ذلك يتضح إذا ما ألقينا نظرة على القضايا والأمور التي يعدها الإمام ابن تيمية فطرية.

فمن القضايا الفطرية عنده: قضية «الله فوقنا» إذ يستدل على ذلك فيقول[1]: «إنه لايمكن وجود موجود قائم بنفسه، لايمكن الإشارة إليه: وقضية أن الله فوق العالم، علم ضروري فطري، وأن الخلق كلهم إذا حز بهم شدة أو حاجة في أمر، وجهوا قلوبهم إلى الله يدعونه، ويسألونه، وأن هذا أمر متفق عليه بين الأمم التي لم تغير فطرتها، لم يحصل بينهم بتواطىء واتفاق. ولهذا يوجد هذا في: فطرة الإعراب، والعجائز والصبيان من المسلمين، واليهود، والنصارى، والمشركين، ومن لم يقرأ كتاباً ولم يتلق مثل هذا عن معلم ولا أستاذ.

وإذا كان هذا مما يجيز هؤلاء الذين لم يتواطأوا بثبوته عندهم كانوا صادقين، فإنهم يمتنع على الجميع الكثير الكذب من غير تواطىء. وبمثل هذا علم ثبوت مايخبر به أهل التواتر مما يعلم بالحس والضرورة، فان المخبر إذا لم يكن خبره مطابقا، فإما ان يكون متعمداً للكذب، وإما أن يكون مخطئاً، وتعمد الكذب يمتنع في العادة على الجمع الكثير من غير تواطؤ، والخطأ على الجمع الكثير ممتنع في الأمور الحسية والضرورية».

وهكذا يتخذ الإمام ابن تيمية من اشتراك الناس في موضوع ما، معياراً للحكم على أصالته وفطريته في الإنسان، فقضية «الله فوقنا» يشترك فيها الأمم من المسلمين واليهود والنصارى، ولم يحدث أنهم تواطأوا أو عقدوا اجتماعاً ليقرروا هذا الأمر أو ذاك. فاشتراكهم على الرغم من بعد أوطانهم وأزمنتهم في أمر من الأمور دليل على فطرية هذا الأمر.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: جـ٦ ص ١٢-١٣ بالتصرف وأنظر أيضا: ص٢٧٢.

ويزيد الإمام ابن تيمية ذلك وضوحاً في موضع آخر، فيرى أن كثيراً من القضايا الخلقية، فطر عليها البشر، فيستدل على سبيل المثال على فطرية «العدل حسن والظلم قبيح» فيقول [1] عن قضية العدل حسن والظلم قبيح: «إذا تصور معنى الحسن والقبيح علم أن هذه المشهورات من أعظم اليقينات فإنها مما اتفقت عليها الأمم».

«فالإنسان من نفسه يجد من لذة العدل والصدق والعلم والإحسان، والسرور بذلك، ما لايجده من الظلم والكذب والجهل، والناس الذين وصل إليهم ذلك والذين لم يصل إليهم، يجدون في أنفسهم من اللذة والفرح والسرور بعدل العادل وبصدق الصادق، وعلم العالم وإحسان المحسن، مالا يجدونه في الظلم والكذب والجهل والإساءة، ولهذا يجدون في أنفسهم محبة. لمن فعل ذلك وثناء عليه ودعاء له، وهم مفطورون على محبة ذلك واللذة به، لايمكنهم دفع ذلك عن أنفسهم كما فطروا على وجود اللذة بالأكل والشرب، والألم بالجوع والعطش [2]. ويقول: «الناس إذا قالوا: العدل حسن والظلم قبيح، فهم يعنون بهذا أن العدل محبوب للفطرة، تحصل لها بوجود لذة وفرح، نافع لصاحبه ولغير صاحبه، تحصل به اللذة والفرح ما تتنعم به النفوس.

وإذا قالوا: الظلم قبيح فهم يعنون به أنه ضار لصاحبه، ولغير صاحبه، به الألم والغم، وما تتعذب به النفوس[3].

ويضيف [4]: واذا تصور معنى الحسن والقبح أن هذه المشهورات من أعظم اليقينات فإنها مما اتفقت عليها الأمم.. وقد تعيش طوائف من الناس زماناً ولا تخطر لهم القضايا الكلية العقلية كقول القائل: النفي والإثبات لايجتمعان، ولاتوجد طائفة إلا وهي تحسن العدل والصدق والاحسان، وتقبح ضد ذلك».

---

(١) الرد على المنطقيين: ص٤٢٣.

(٢) المصدر السابق: ص٤٢٤.

(٣) المصدر السابق: ص٤٢٣.

(٤) المصدر السابق: ص٤٢٤ باختصار.

وبذلك يتضح لنا أن الاسلام الفطرة، أو فطرية الإسلام، إذا صح أنها تعني عند العلماء الآخرين التوحيد فقط [1]، فإنها تعني عند ابن تيمية بصريح الأدلة التي أوضحنا بعضها ـ أكثر من التوحيد، أنها تعني المبادىء العامة للإسلام.

ومما يدل على أن معنى الإسلام الفطرة لايقتصر عنده على التوحيد فقط استدلاله العقلي على ذلك إذ يقول [2]: إن الفطرة تقتضي معرفة الحق والتصديق به.

«وذلك: أن العبد له قوة الشعور والإحساس والإدراك، وقوة الإرادة والحركة، وإحداهما أصل والثانية مستلزمة لها، الثانية مستلزمة للأولى ومكملة لها.

فهو بالأولى يصدق بالحق ويكذب بالباطل، وبالثانية يحب النافع الملائم له، ويبغض الضار المنافي له. والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له، ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة.

فما كان حقاً موجوداً صدقت به الفطرة، وما كان حقاً نافعاً عرفته الفطرة فأحبته واطمأنت إليه.

وذلك هو المعروف. وماكان باطلاً معدوماً كذبت به الفطرة فأبغضته وأنكرته».

ويستدل على ذلك في موضع آخر إذ يقول [3]: «وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ من أن كل مولود يولد على الفطرة، مما تقوم الأدلة العقلية على صدقة، كما أخبر الصادق المصدوق، وتبين أن من خالف مدلول هذا الحديث فإنه مخطىء في ذلك» وبيان ذلك من وجوه:

ثم يبدأ بالاستدلال العقلي على ذلك فيسوق عدة أدلة: أقواها [4]:

«أن يقال: لاريب أن الإنسان قد يحصل له تارة من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقا، وتارة مايكون باطلاً؛ فإن اعتقاداته قد تكون مطابقة لمعتقدها وهو الحق،

---

(١) أنظر، د. أحمد حسن فرحات في كتابه: فطرة الله التي فطر الناس عليها صفحة ٢٩ وما بعدها.

(٢) مجموع الفتاوي ٣٢/٤.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٤٥٦/٨.

(٤) درء تعارض. . ٤٥٦/٧ وما بعدها. نضطر لذكر الدليل على الرغم من طوله وذلك لأهميته وسوف نعلق عليه في آخره.

وقد تكون غير مطابقة وهو الباطل. والخبر عن هذا صدق، وعن هذا كذب. والإرادات تنقسم إلى مايوافق مصلحته، وهو جلب المنفعة له، وإلى مالايوافق مصلحته بل يضره.

فإن الإنسان متحرك بالإرادة. ولهذا قال ﷺ أصدق الأسماء: الحارث وهمام، وأحبها إلى الله: عبدالله وعبد الرحمن، وأقبحها: حرب ومرة، فإن الإنسان لابد له من حرث وهو العمل والحركة الإرادية، ولابد له من أن يهم بالأمور: منها مايهم به ويفعله، ومنها مايهم به ولا يفعله، فإن كان المراد موافقاً لمصلحته كانت الإرادة حسنة محمودة، وإن كان مخالفاً لمصلحته كانت الإرادة سيئة مذمومة، كمن يريد مايضر عقله ونفسه وبدنه.

وإذا كان الإنسان تارة تكون تصديقاته وإراداته حسنة محمودة، وتارة تكون سيئة، فلا يخلو: إما أن تكون نسبة نفسه إلى النوعين نسبة واحدة، بحيث لا يترجح أحد الصنفين على الآخر بمرجح من نفسه، أو لابد أن تكون نفسه مرجحة لأحد النوعين.

فإن كان الأول، لزم أن لا يوجد أحد الصنفين إلا بمرجح منفصل عنه، ثم ذلك المرجح المنفصل إذ قدر مرجحان: أحدهما يرجح الصدق الذي ينفعه، والآخر يرجح الكذب الذي يضره، فإما أن يتكافأ المرجحان، أو يترجح أحدهما، فإن تكافأ المرجحان، لزم أن لا يحصل واحد منهما، وهو خلاف المعلوم بالضرورة.

فإنا نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق، وأن ينتفع، وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع. وإذا كان لابد من بمرجح أحدهما فترجح الكذب الضار ـ مع فرض تساوي المرجحين ـ أولى بالامتناع من تكافيهما، فتعين أنه إذا تكافأ المرجحان عنده الصدق والنفع، وهو المراد باعتقاد الحق وإرادة الخير.

فعلم أن في فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع، وحينئذ فالإقرار بوجود الصانع ومعرفته والإيمان به هو الحق أو نقيضه؟

والثاني معلوم الفساد قطعاً، فتعين الأول، وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به.

وأيضاً فإنه مع الإقرار به، إما أن تكون محبته أنفع للعبد، أو عدم محبته، والثاني معلوم الفساد. وإذا كان الأول أنفع له، كان في فطرته محبة ماينفعه.

وأيضاً: فإنه إما أن تكون عبادته (وحده) لاشريك له، أكمل للناس علماً وقصداً، أو الإشراك به. والثاني معلوم الفساد، فوجب أن يكون في فطرته مقتض يقتضي توحيده.

وأيضاً فإما أن يكون دين الإسلام مع غيره من الأديان متماثلين، أو الإسلام مرجوحاً أو راجحاً. والأول والثاني باطلان باتفاق المسلمين، وبأدلة كثيرة، فوجب أن يكون في الفطرة مقتض يقتضي خير الأمرين لها، وامتنع أن تكون نسبة الإسلام وسائر الملل إلى الفطرة واحدة، سواء كانت نسبة قدرة، أو نسبة قبول».

وهكذا يتضح لنا مما مضى أن الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو يستدل على فطرية الإيمان بالله فإنما يقصد الإسلام بمبادئه العامة وليس التوحيد فقط.

وإذا مادققنا النظر في استدلال الإمام ابن تيمية، فسوف نلاحظ أن برهانه يستند على المقدمات التالية:

١ ـ أن الانسان يميل إلى الصدق دون الكذب.

٢ ـ وأن الصدق حق ونافع، كما أن الكذب باطل ضار.

٣ ـ وبناءً على ذلك فإن في الإنسان ميلاً نحو الحق والنافع، وكراهة الباطل الضار.

٤ ـ والإسلام بتعاليمه ـ باتفاق العلماء المسلمين ـ حق نافع.

٥ ـ وبالتالي فإن في الإنسان ميلاً إلى الإسلام وكرهاً نحو ضده.

٦ ـ وأن هذا الميل هو الفطرة.

٧ ـ وبالتالي فإن الإسلام بتعاليمه هو الفطرة.

والحقيقة، فإن كل واحدة من تلك المقدمات قابلة للمناقشة، ولاسيما عند من يريد معارضتها، فميل الإنسان نحو الصدق، دون الكذب ـ على فرض إثباته ـ وهو محل الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة. في حسن الأشياء وقبحها ـ لايتحقق من وجوده إلا عندما يبلغ الطفل إلى مرحلة التمييز على الأقل. أما الصبي المميز، فقد يكون ميله نحو الصدق كسبيا نتيجة الأسرة أو البيئة.

ولعل الإمام يتخذ في هذه القضية ـ من اشتراك الناس جميعاً في هذا الميل دليلاً على فطريتـه، إلا أن هذا الميل لماذا لايكـون نتيجـة الخـبرة والتجـربـة التي تمر بها المجتمعات فتجد من خلالها وليس قبلها ـ أن الإنسان كلما صدق، نال احترام الناس وكسب الكثـير على الأقـل على المـدى البعيد حتى أصبحت هذه القيمة من القيم الخلقية، راسخة عندهم، وعندما يصل الطفل الى مرحلة التمييز يكتسب هذه الخبرة من البيئة والأسرة.

أما القضية الثانية وهي أن الصدق نافع، فلماذا لايكون الإنسان قد كسبها من خلال خبرته وتجاربه؟ ثم اعتبر كل نافع حقاً.

أما في القضية الثالثة، فقد انتقل الإمام من القضية الخاصة وهي: أن الانسان يميل إلى الصدق وهو حق إلى القضية العامة وهي أن الانسان يميل إلى كل ماهو حق، هذا الانتقال، كما هو واضح غير ضروري، وعلى كل حال فان الميل ليس هو الفطرة، لأن الأول قد يكون بعدياً يأتي بعد الخبرة الحسية والتجربة، وأما الثانية فلا تسمى كذلك إلا اذا كانت قبلية أي موجودة في الانسان قبل أية خبرة حسية وتجربة.

وبالإضافة إلى ذلك. فإن البشر غالباً ما يختلفون في ماهو نافع وماهو ضار، ولذلك يختلفون في ميولهم نحو هذا أو ذاك، والفطرة تقتضي الاشتراك.

الفطرة والاستعداد:

كما قد يوجَّه نقد آخر للإمام ابن تيمية في هذا الموضوع، إذ أن القضية ةبمجرد حاجتها إلى الاستدلال تخرج عن كونها فطرية، كما هو رأي الكثيرين، فكيف يستدل الإمام على فطرية الإسلام؟

إلا أن الإجابة عن ذلك أن كون الاسلام فطرياً عند ابن تيمية لايعني أن المرء يولـد وهو يعرف هذه القضايا أو يعرف الإسلام والتوحيد، بل يرى ابن تيمية: أن الطفل يولد ولديه استعداد لمعرفة هذه الامور، هذا الاستعداد الذي يظهر وينمو كلما نما عقله وعلمه حتى يصبح مكلفاً.

وعلى هذا، فان الفطرة أو الفطري عند ابن تيمية يعني **الاستعداد فقط**، إذ يقـول: ومثـل الفطرة مع الحق: مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير

حجاب لرأي الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة من تهود وتنصر وتمجس: مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس. وكذلك أيضاً كل ذي حس سليم يحب الحلو، الا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه، حتى يجعل الحلو في فمه مراً.

ولايلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لانعلم شيئاً، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق: الذي هو الإسلام، بحيث لو ترك من غير مغير، لما كان إلا مسلماً.

وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع هي فطرة الله التي فطر الناس عليها.

والظاهر أن العلماء ومنهم ابن تيمية الذين فسروا الفطرة بالاستعداد يستندون إلى قوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.. ﴾ الخ [1]

إذ يقول ابن تيمية في تفسيرها: «ومعلوم أن كل مولود يولد على الفطرة ليس المراد به أنه يوم ولدته أمه يكون عارفا بالله موحداً له بحيث يعقل ذلك، فإن الله يقول: والله أخرجكم من... الخ.

ونحن نعلم بالاضطرار أن الطفل ليس عنده معرفة بهذا الأمر، ولكن ولادته على الفطرة تقتضي ذلك. وتستوجبه بحسبها.

فكلما حصل فيه قوة العلم والإرادة حصل من معرفتها بربها، ومحبتها له، ما يناسب ذلك. كما أنه ولد على أنه يحب جلب المنافع ودفع المضار بحسبه. وحينئذ فحصول موجب الفطرة، سواء توقف على سبب، وذلك السبب موجود من خارج أو لم يتوقف، على التقديرين يحصل المقصود. ولكن قد يتفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع، فلا يحصل مقصود الفطرة».

ويتضح من ذلك أن الطفل، عندما يولد، لايعرف شيئاً، ثم تأتيه المعرفة والتوحيد بالتدريج، وهذا الذي يدل عليه كلام ابن تيمية يراه أكثر من مفسر في تفسير

---

(١) مجموع الفتاوي: جـ٤ ص٢٤٧.

الاية نفسهـا: منهم النيسابوري في تفسيره، إذ قال [1] نقلا عن الحكماء: واعلم أن جمهور الحكماء زعموا أن الإنسان في مبدأ فطرته خال عن المعارف والعلوم، إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر والفؤاد وسائر القوى المدركة حتى ارتسم في خياله بسبب كثرة ورود المحسـوسات عليه، حقائق تلك الماهيات، وحضرت صورها في ذهنه، ثم إن مجرد حضـور تلك الحقـائق إن كان كافياً في جزم الذهن بثبوت بعضها لبعض أو أنتفاء بعضها عن بعض فتلك الأحكام علوم بديهية، وإن لم تكن كذلك بل كانت متوقفه على علوم سابقة عليها، ولا محالة تنتهي إلى البديهيات قطعاً للدور أو التسلسل فهي علوم كسيبة، وظهر أن السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس الإنسانية هو ان الله أعطى الحواس والقوى الداركة للصور الجزئية.

ومنهم فخر الدين الرازي إذ يقول [2]: «إن هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة في نفوسنا ثم إنها حدثت وحصلت. . إنها حدثت في نفوسنا بعد عدمها بواسطة اعانة الحواس، التي هي السمع والبصر. وتقريره: أن النفس كانت في مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم، إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى، ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المبصر، وكذلك إذا سمع شيئاً مرة بعد مرة بعـد أخـرى أرتسم في سمعـه وخيالـه ماهية ذلـك المسموع، وكذا القول في سائر الحواس، فتصير الحواس سببا لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل، ثم إن تلك الماهيات على قسمين: .

أحد القسمين: مايكون نفس حضوره موجبا تاما في جزم الذهن بإسناد بعضها إلى بعض، بالنفي أو الاثبات، مثل أنه اذا حضر في الذهن أن الواحد ماهو؟ وأن نصف الاثنين ماهو؟ كان حضور هذين التصورين علة تامة في جزم الذهن بأن الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين، وهذا القسم هو عين البديهية.

(والقسم الثاني): مالا يكون كذلك، وهو العلوم النظرية، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الجسم ماهو، وأن المحدث ماهو، فإن مجرد هذين التصورين في الذهن

---

(١) سورة النحل آية ٧٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٤٦١/٨.

لايكفي في جزم الذهن بأن الجسم محدث، بل لابد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة والحاصل: أن العلوم الكسبية إنما يكون اكتسابها بواسطة العلوم البديهية. وحدوث هذه العلوم البديهية إنما كان عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنما كان بسبب إعانة هذه الحواس على جزئياتها، فظهر أن السبب الاول لحدوث هذه المعارف في النفوس والعقول هو أنه تعالى أعطى هذه الحواس، فلهذا السبب قال تعالى: (والله أخرجكم من . . . . الخ).

وكثيرا ما يذكر ابن تيمية [1] في هذا المجال حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس وسقوا وزعوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لاتمسك ماءً ولا تنبت كلاءً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله أرسلت به».

ويقول في موضع آخر[2] «. . . إن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها من يفسدها كانت مقرة بالصانع، عابدة له.

فإن قيل: هذه الخواطر التي تخطر للإنسان قد تحصل لبعض الناس دون بعض، بحسب ما يتفق من الأسباب، كما أن بعض الناس يحصل له من يخاطبه دون بعض، فليسوا مشتركين في أسباب الخواطر والخطاب.

قيل: إذا لم تكن الخواطر متوقعة على مخاطب من خارج، كانت الفطرة الإنسانية هي المقتضية لذلك، وإن كان ذلك بأسباب يحدثها الله: من إلهام ملك، أو غيره، لكن المقصود أنه لا يحصل لها ذلك بواسطة تعلم إنسان ودعائه. وهذا هو المقصود بيانه من كونها ولدت على الفطرة. ليس المراد أنه يجب وجود الهدى لكل إنسان، فإن هذا خلاف الواقع، والحديث قد بين أن المولود يعرض له من يغير فطرته.

---

(١) على حاشية الطبري ٧/١٠٠ ـ ١٠١ دار المعرفة بيروت.

(٢) تفسير فخر الرازي ٢٠/٩١-٩٢ دار الفكر ـ ١٩٨١ ط١. مفاتيح الغيب.

وقد أسهب الدكتور عبدالكريم الخطيب[1] في تشبيه الفطرة بالاستعداد مشبهاً إياهـا بالحبة، أو البذرة الطيبة، ومقارناً بينها وبين العقل الذي اعتبره الراعي القيم عليها، كما ذكر أن الإنسان بالإضافة إليهما يملك النفس الأمارة بالسوء، التي يستغلها الشيطان، وعن طريقها يفسد الراعي القيم».

إلا أنه إذا صح أن الإنسان يولد معه نواة العقل، فإن العقل أيضا كقوة تميز بين الخير والشر. غريزة في الإنسان، هذا ماذكره ابن تيمية ـ رحمه الله ـ نقلاً عن أحمد بن حنبل. والحارث المحاسبي[2].

هل الآية قاطعة في نفي كل علم عن المولود؟

وعلى الرغم مما لهذا التفسير من المميزات فإن الآية التي يرى البعض أنها تدل على نفي كل علم عن المولود عند ولادته، لانرى أنها قاطعة في ذلك، إذا ماشهد العلم الحديث ـ بعد بطء وركود في مجال علم الإنسان ومعرفته بنفسه بالمقارنة مع التقدم الهائل في مجال علم الطبيعة، كما يشرح ذلك (الكسيس، كاربل) مؤلف كتاب «الإنسان ذلك المجهول».[3]

نعم إذا شهـد العلم الحديث تقدماً عظيماً في مجال دراسة النفس الإنسانية، فأثبت على عكس هذا التفسـير أن الـطفل حتى عند ولادته يعرف بعض الأوليات وبالديهيات أو كلها، ولكن ما ينقصه هو معرفة الاصطلاحات والأسماء واللغات، إذ أنه من المؤكد يشعر بوجوده، ويشر باللذة والألم، والشقاء والسعادة.. ويتجه إلى ثدي أمه...

وقـد أثبت العلم الحـديث أن الجنـين في بطن أمـه يتأثر بالموسيقى كما يتأثر بمشاجرة والديه وأن العلاقات بينهما قد تؤثر في تكوينه النفسي فيما بعد.

والطفل مهما كان صغيراً إذا ما رأي أمه في المطبخ مثلا أو في غرفة النوم لايذهب

---

(١) أنظر التجاري كتاب العلم ١/٢٣

(٢) انظر: درء تعارض ٨٠٠٠/٤٢ والحديث في البخاري كتاب العلم ١/٢٣

(٣) درء تعارض ٨٠٠٠/٤٦٢ ـ ٦٣

ليبحث عنها في غرفة أخرى، وإذا ما وضعنا تمثالاً ناطقاً لها على بعد أمتار، لاحتار وعاد ينظر إليها، وكأنه لايصدق أن شيئاً واحداً يوجد في مكانين في آن واحد.

وهـذا ما يؤكد أنه قد لايعرف كلمة المكان، وكلمة الأم، وماهيات الأشياء، وأسماءها ولكنه يعرف المعاني..

نقول: هذه الأفكار نطرحها كمجرد تساؤلات يمكن أن يحسم المستقبل والتقدم العلمي في مجال علم الإنسان ودراسته ومعرفته، الأمر فيه، ويجيد الإجابة عنها أكثر منا اليوم.

فكما عجز الإنسان عن تفسير علمي لبعض الآيات العلمية والكونية في القرآن الكريم، حتى فترة قريبة، ثم اكتشفت أشياء جديدة في العصر الحديث، فقد يكشف المستقبل عن هذا الأمر أيضاً.

وأما الآية: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم... الخ التي استدل بها بعض العلماء فليست قاطعة في نفي كل معرفة عن الطفل منذ ولادته، ولاسيما أن العام قد يراد به الخاص في كثير من الموارد في القرآن الكريم مثل:

﴿.. ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لايعلم بعد علم شيئاً﴾[1]

وفي سورة أخرى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً﴾[2]

وفي موضوع آخر: ﴿أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾[3]

وفي سورة أخرى: ﴿أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[4]

فالإنسان مهما بلغ من العمر عتياً فإنه لايعود جاهلاً بكل أمور الحياة والدين وإلا نسى الدين والشهادة والتوحيد والصلاة... الخ.

---

(١) سورة النحل آية ٧٠.

(٢) سورة الحج آية ٥.

(٣) سورة المائدة آية ١٠٤.

(٤) سورة البقرة آية ١٧٠.

كما يفهم من ظاهر اللفظ في الآية الأولى والثانية.

وكذلك فإن المشركين، مهما جهلوا، من أمور الدين والدنيا، لايصل بهم الوضع إلى الجهل المطبق كما يفهم من ظاهرة الآيتين الثالثة والرابعة.

ومن طريف ما يلاحظه الطبري [1] في الآية عند تفسيرها قوله: «والله أعلمكم مالم تكونوا تعلمون، من بعدما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئاً ولا تعلمون. فرزقكم عقولاً تفقهون بها وتميزون بها الخير من الشر، وبصركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ماتتحاورون به بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص، فتتعارفون بها بعضاً من بعض، والأفئدة والقلوب التي تعرفون بها الأشياء، فتحفظونها وتفكرون، فتفقهون بها لعلكم تشكرون.

وقوله [والله أخركم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً] كلام متناه ثم ابتديء الخبر فقيل: وجعل الله لكم السمع والأبصار والأفئدة.

ثم يقول: [2] وإنما قلنا ذلك كذلك؛ لأن الله تعالى ذكره، جعل لعباده السمع والأبصار والافئدة قبل أن يخرجهم من بطون أمهاتهم، وإنما اعطاهم العلم والعقل بعدما أخرجهم من بطون أمهاتهم».

ونقول إذا كان المقصود بالفؤاد ـ كما ورد كثيرا ـ هو العقل، فإن ذلك يعني إجراء مزيد من الدراسات لمعرفة مايخرج به الطفل إلى الدنيا من الحالة من حيث المعرفة.

الخلاصة

١ ـ من المعروف عند الباحثين أن معنى كلمة الفطرة الواردة في الكتاب والسنة هو الإسلام، إلا أن الإسلام الذي هو الفطرة عند الإمام ابن تيمية ليس المقصود به عنده التوحيد فقط، وإنما المبادىء الأسياسية التي يشترك فيها الأديان السماوية وأهمها التوحيد.

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١٠٢/٧ دار المعرفة بيروت.

(٢) المصدر السابق.

وقد استدل البحث على ذلك بالآتي :

أ ـ نص ابن تيمية في مواضع عديدة على فطرية القيم الخلقية بالإضافة الى فطرية التوحيد .

ب ـ إن الإمام ابن تيمية ـ كغيره من كثير من المفسرين ـ يرى أن فطرية الإسلام لا تعني أن الطفل يولد عارفاً بالإسلام ، وإنما تعني أن لديه استعداداً له .

فإذا كان الامر كذلك فما الذي يمنع أن يكون لديه استعداد للقيم الخلقية العليا كذلك مثلاً، ولا سيما أن أصالتها في الإنسان بادية للعيان .

٢ ـ أن الآية القرآنية التي استدل بها معظم المفسرين ومنهم الامام ابن تيمية : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . .) لاتدل بالضرورة القاطعة على نفي كل علم عن حديث الولادة .

بل الأمر متروك للعلم والتجارب والأبحاث العلمية التي قد تحسم ذلك في المستقبل .

ويدعو البحث العلماء والباحثين إلى الأخذ بالأسباب العلمية الحديثة لمعرفة حقيقة هذا الامر، غير مكتفين بتفسير السابقين للنصوص، التي لاتبت في هذا الموضوع نهائياً، ولا تغلق الباب أمام البحث العلمي الجاد حوله .

أهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ صحيح البخاري

٣ ـ ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية):

أ ـ اقتضاء الصراط المستقيم: المكتبة السلفية، لاهور باكستان ١٩٧٧م

ب ـ درء تعارض العقل والنقل، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى ـ مكتبة ابن تيمية.

جـ ـ الرد على المنطقيين: مطبعة معارف، لاهور، باكستان ١٩٧٦م

د ـ الرسالة التدمرية: المكتب الاسلامي ١٩٨٠م

هـ ـ مجموعة الرسائل: دار احياء التراث العربي ١٩٧٢هـ

و ـ مجموع الفتاوي: مطابع الرياض، الطبعة الأولى ـ ١٣٨١هـ

ز ـ نقص المنطق: دار الكتب العلمية ـ بيروت

ابن منطور (محمد بن مكرم بن على بن أحمد جمال الدين)

لسان العرب: بيروت، دار لسان العرب

٤ ـ أبو البقاء (أيوب بن موسى)

الكليات: وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٢

٥ ـ الاصفهاني (ابو القاسم الحسين بن محمد ـ المعروف بالراغب)

المفردات في غريب القرآن: تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٦ ـ أحمد فرحات: فطرة الله التي فطر الناس عليها: دار البشير: عمان ١٩٨٧

٧ ـ الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول: ترجمة شفيق اسعد فريد ـ مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٣

٨ ـ الرازي (محمد الرازي فخر الدين): مفاتح الغيب ـ دار الفكر ١٩٨١

٩ ـ الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة ـ بيروت.

١٠ ـ د. عبدالعال مكرم: معجم القرأت ـ جامعة الكويت ١٩٨٢

١١ ـ عبـد الكريم الخطيب: الدين ضرورة حياة الإنسان، الرياض، دار الأصالة والمعاصرة، ١٩٨١
١٢ ـ الغمراوي (محمد أحمد): الإسلام في عصر العلم ـ دار الكتب الحديثة ١٩٧٨
١٣ ـ القرطبي (ابو عبدالله محمد بن احمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧
١٤ ـ محمد فؤاد عبدالباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ دار الفكر ١٩٨١
١٥ ـ مجمع اللغة العربية : معجم الفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠

الفهرس

THE MEANING OF HUMAN NATURE AS SEEN

BY IBN TAYMIA.

By: Dr. Abdul Halim Ahmady

1- It is a well known fact among researchers that the meaning of human existence as it is mentioned in the Quran and the traditions of the Prophet is synonymous with the word Islam. Yet Islam, as seen by Ibn Taymia, doesn't only mean the oneness of Allah, but it means all the fundamental principles shared by all heavenly religions in addition to the most important concept namely, the oneness of Allah. This research gives the following references as evidence.

   A - Ibn Taymia in many places refers to basic human nature as a source of ethics and the oneness of Allah.

   B - Imam Ibn Taymia agrees with many other interpreters that the natural human belief in Islam doesn't mean that a child is born believing in Islam, but he is born ready to believe in it. If this is true, why shouldn't a child be ready to accept higher moral ethics - especially if they are deeply rooted in man.

2- The Quranic Verse "It is He who brought you forth from the wombs of your mothers when ye knew nothing; (AL-Nahl, 78)" which is used as evidence by many Muslim interpreters; Ibn Taymia included, doesn't necessarily deny all kinds of knowledge concerning birth. Yet, it is up to Science and Scientific experimentation to verify this fact in the future.

This research invites scholars and researchers to use all modern scientific resources to find out whatever they can about this issue and should not rely only on previous interpretations.